المحاضرة الثامنة

تحالف الحركة الصهيونية مع الحركة الاستعمارية للاستيلاء على فلسطين

بعد أن رفض الصهاينة عام ١٩٠٥ الحل الأوغندي نهائيا لم يبق من أمل سوى اندلاع حرب عالمية تؤدي إلى تقطيع الإمبراطورية العثمانية بشكل نهائي، هذه الإمبراطورية التي أصبحت تسمى الرجل المريض ذهب عهد قوتها وعظمتها، العهد الذي كانت تسيطر فيه على البحر الأبيض المتوسط وتهدد إسبانيا وتحاصر فيينا، لقد ضاعت قوتها ومعها الكثير من ممتلكاتها، ففي عام ١٨١٢ استولت روسيا على بسارابيا كما استولت فرنسا على الجزائر عام ١٨٣٠ وعام ١٨٣٢ حصلت اليونان على استقلالها، وضاعت معظم الأراضي الأوروبية بعد الحرب الروسية-التركية عام ١٨٧١، وفي عام ١٨٨١ أصبحت تونس من نصيب فرنسا، وفي ١٨٨٢ انتقلت مصر ليد الإنجليز، وفي عام ١٩٠٨ فقدت الإمبراطورية العثمانية جزيرة كريت، كما خسرت ليبيا عام ١٩١٢ بعد حرب مع إيطاليا وفي العام نفسه أعلن استقلال ألبانيا، وبالإضافة إلى كل هذا كانت هناك اضطرابات داخلية كتمرد الأرمن خلال الفترة الواقعة ما بين ١٨٩٠-١٨٩٧ مما أدى إلى مذابح أليمة.

وتفاقمت الديون وظهرت الجماعات المعارضة للسلطان عبد الحميد الثاني وعلى رأسها جمعية الاتحاد والترقي التي بدأت تنادي ببعض الشعارات غير المألوفة في الدولة العثمانية، منها الوطن، الدستور، البرلمان ... وكان لليهود المحلين ضلع في الأمر، كما تمكنت خلايا الاتحاد والترقي من التغلغل في صفوف الجيش العثماني، وتمكن الصهاينة من استغلال الفرصة والاتصال بها، وبمجرد ما تمكنت من الإطاحة بحكم عبد الحميد والاستيلاء على السلطة حتى تقدم الصهاينة إلى الاتحاديين برغبتهم، في أن تعترف الجمعية بفلسطين وطنا قوميا لليهود، ولاشك أن الصهيونية كانت تنتظر بفارغ الصبر انهيار العملاق المسلم الذي أصبح عاجزا عن السيطرة حتى على إمبراطوريته.

وآمن هرتزل ومن جاء بعده بأن الحركة الصهيونية والاستعمار الصهيوني لفلسطين هو امتداد للإمبريالية الأوروبية، كما آمنت الدول الغربية أنها ستجني عدة مصالح بدعمها للصهيونية، فتوطدت صلة الاستعمار بالصهيونية، وأصبحت علاقة وجودية ومصيرية من ناحية، ومن ناحية أخرى علاقة مصالح ومنافع بين الطرفين، ولم تمض عشرة أعوام على انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول في بازل بسويسرا، حتى عقد مؤتمر عالمي للدول الاستعمارية عام ١٩٠٧ في لندن وعدة عواصم أوروبية استعمارية، هذا المؤتمر وضع أسسه المحكمة وطور أسلوبه التقليدي المرتبط بالمخطط الاستعماري البريطاني "كامبل بانرمان" حين دعا إلى عقد المؤتمر الذي ضم القوى الاستعمارية على رأسها بريطانيا ومن يسير في فلكها، وكانت بريطانيا شرعت ومنذ عام ١٩٠٤ على العمل على تشكيل جبهة استعمارية تضم الدول الاستعمارية لتخفيف حدة التنافس وتجنب صدام القوى الاستعمارية، وكذا مواجهة خطر ألمانيا المنافس القوي.

وخرج المؤتمر في النهاية بمجموعة من التوصيات أهمها التي تعلقت بشؤون الوطن العربي، عبّر عنها رئيس وزراء بريطانيا "كامبل بانرمان" بأن الخطر الذي

يهدد الاستعمار الغربي يكمن في البحر الأبيض المتوسط، وأوصى التقرير بأن تعمل الدول الاستعمارية على تجزئة هذه المنطقة، لأن في اتحادها قوة، كما يجب غرس حاجز بشري غريب في نقطة التقاء بين الشرق والغرب، ويمكن للاستعمار أن يستخدمه كأداة في تحقيق أهدافه، وعرف هذا التقرير لاحقا باسم تقرير "كامبل بانرمان" نسبة إلى رئيس وزراء بريطانيا، لكنه في الحقيقة عبّر عن الاجتماع الذي ضم دول الاستعمار القديم وفي مقدمتها بريطانيا، ومعها فرنسا، هولندا وبلجيكا، وإسبانيا، والبرتغال، وإيطاليا، وكانت الاتصالات التي تمت بين هذه الدول مدعومة بمشاهير الفكر والمؤرخين والمنظرين الاستعماريين وأساتذة وخبراء وجيولوجيين ومختصين في الاقتصاد والبترول والزراعة والتاريخ والقواعد الفكرية، وعقد المؤتمر في البداية في لندن ثم انتقلت جلساته الطويلة إلى أكثر من عاصمة أوروبية كما سبقت الإشارة.

وأهم ما جاء في التقرير الذي سيكون مخططا استعماريا للدول الأوروبية المتحالفة، وللصهيونية التي سارعت عبر قادتها إلى الاتصال بفرنسا وغيرها لتحقيق هدفها "أن الخطر ضد الاستعمار يكمن في البحر المتوسط، فعلى الشواطئ الشرقية والجنوبية لهذا البحر يعيش شعب واحد، تتوافر له وحدة التاريخ والدين واللغة وكل مقومات التجمع والترابط، هذا فضلا عن ثرواته الطبيعية ونزعته للتحرر، فلو أخذت هذه المنطقة بالوسائل الحديثة، وإمكانيات الصناعة الأوروبية وانتشر التعليم بها، فستحل الضربة القاضية بالاستعمار الغربي فيجب إذن على الدول ذات المصالح المشتركة أن تعمل على استمرار تجزؤ هذه المنطقة، وإبقاء شعبها على ما هو عليه من تفكك وتأخر، وهذا يستلزم فصل الجزء الإفريقي في هذه المنطقة عن الجزء الأسيوي، وتقترح اللجنة لذلك إقامة حاجز بشري قوي وغريب، يحتل الجسر البشري الذي يربط آسيا بإفريقيا، بحيث يشكل في هذه المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس قوة صديقة للاستعمار وعدوة لسكان المنطقة."

لقد درست بريطانيا كل الظروف الدولية ورأت من الضروري إيجاد جبهة استعمارية لحماية المصالح فاختارت نطاق الدول الاستعمارية القديمة، واستبعدت ألمانيا لأنها كانت تشك في نيتها الحقيقية، وتوصلت القوى المتحالفة لتقرير "كامبل بانرمان" هذا التقرير الذي سيحوّل إلى ورقة عمل ومخطط استعماري سارت عليه سياسة الدول الاستعمارية لتمزيق الوطن العربي، والتقت أهداف الاستعمار والمصالح الصهيونية أوائل القرن العشرين، فاجتهدت بريطانيا لتنفيذ مخططها الاستعماري وكان من بين وسائلها دعم الصهيونية وإقامة "دولة إسرائيل" لتكون قاعدة استعمارية في المنطقة، وكانت الفرصة مواتية خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) التي شهدت تراجع الدولة العثمانية وظهور التحالف البريطاني الصهيوني علنا، وما كادت الحرب العالمية الأولى تضع أوزارها حتى تحقق الحلم الصهيوني في احتكاك الوعد، رغم أن العامين الأولين من الحرب لم يحملا شيئا رسميا لليهود بصورة خاصة.